



علم السيمياء بين التراث والحداثة

رئيس التحرير

كثرت في الآونة الأخيرة الكتابات التي تناولت (علم السيمياء)، وتعددت البحوث والمقالات التي وردت إلى مجلة (التراث العربي) والتي تناولت هذا العلم من زوايا مختلفة، بعضها من وجهة النظر التراثية، وبعضها الآخر من وجهة نظر الدلالة الحداثية.

ووقع القارئ المتتبع لمجلة التراث العربي في حيرة من أمره للتوفيق بين مفهوم علم السيمياء في دلالته التراثية، وبين المفهوم الذي اكتسبه المصطلح على أيدي المشتغلين في علم الدلالة، أو المشتغلين في علم اللسانيات عامة.

ولتوضيح هذا المصطلح في المفهومين: القديم والحديث نكتب هذه الأسطر،

فعندما يحاول الباحث في مصطلح (السيمياء) أن يؤرخ بإيجاز لهذا العلم يلتقي في فترة مبكرة من حركة التأليف في المصطلحات العلمية بالعالم المشهور جابر بن حيان (ت 200هـ - 815 م) وهو - على الرغم مما أثير حول سيرته ومؤلفاته من جدال - كانت ثقته بنفسه ويعلمه أكبر من أن يسعفه على تحقيقها التطور العلمي الذي بلغه في عصره، فقد بلغ جابر مرحلة متقدمة في علم الكيمياء، وكان خياله العلمي الطموح يفضي به إلى أن ينقل المعادن التي يعالجها من حالة إلى حالة، وتطلع إلى أن يحول المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، وكان هذا حلم البشرية منذ قديم الزمان، ولكن مخبره المتواضع بأجهزته لم يتمكن من ذلك، فتحول عنده الطموح من عالم التحقيق إلى عالم التخيل والوهم. وأنفق وقتاً كبيراً، وجهوداً كثيرة في إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى،

فوقع في طلب المستحيل، وتحولّ عنده علم الكيمياء إلى علم السيمياء الذي كان في مفهوم ذلك العصر يقترب من السحر. كما تحول علم الفلك عند العرب إلى علم التنجيم، فعلم السيمياء، كما أطلق عليه صاحب كتاب (أبجد العلوم) اسم (ما هو غير حقيقي من السحر)⁽¹⁾، ولهذا قال بعض مؤرخي تاريخ العلوم عند العرب: إن جابر بن حيان، هذا العالم الجليل كان كبير السحرة في هذه الملة، تصفح كتب القوم، واستخرج الصناعة، وغاص في زبدتها واستخدمها، ووضع فيها عدة تأليف، وفي صناعة السيمياء خاصة.

وأضاف - أي مؤلف كتاب أبجد العلوم - "أن في هذا الباب (حكايات عن ابن سينا والسهروردي كثيرة. وأطال ابن خلدون في هذا العلم"⁽²⁾، وقال: إن لفظ (سيمياء) عبرانيّ معرّب، أصله (سيم به) ومعناه: اسم الله، وأما المقالات السبع عشرة للحلاج فإنما هي على سبيل الرمز، وقد حقق ابن تيمية في مؤلفاته أن الحلاج كان من الساحرين المشعوذين"⁽³⁾.

وفي كتاب (طبقات الأطباء) قيل: إن كمال الدين بن يونس كان يعرف علم السيمياء⁽⁴⁾ وعرفه التهانوي في كتابه (كشاف اصطلاحات الفنون) بأن السيمياء (هو علم تسخير الجن، كذا في بحر الجواهر)⁽⁵⁾.

وبعض أنصاف العلماء أدخلوا تحت علم السيمياء علوماً عدة منها: (علم أسرار الحروف) وهو من تقاريع السيمياء، ولا يوقف على موضوعه، ولا تحاط بالعدد مسائله، تعددت فيه تأليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع آثارهما، ثم ظهر بالمشرق.

وإذا استفتينا معجمات اللغة العربية لتفتينا في مفهوم هذا المصطلح وجدناها تقول:

"السومة والسومة والسومة والسومة: العلامة، والخيال المسومة"⁽⁶⁾: هي التي عليها السمة، وقد يجيء السيمياء والسيمياء ممدودين، وأنشد لأسيد:

غلام رماه الله بالحسن يافعاً له سيمياء لا تشقّ على البصر

كان الثريا غلقت فوق نحره وفي جيده الشعرى، وفي وجهه القمر

(له سيمياء لا تشقّ على البصر) أي يفرح به من ينظر إليه"⁽⁷⁾.

(1) - أبجد العلوم، صديق القنوجي، ج 2، ق 1، ص 392.

(2) - المصدر نفسه، ص 392.

(3) - المصدر نفسه، ص 392.

(4) - طبقات الأطباء، 34/17.

(5) - كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي 999/1.

(6) - من الآية القرآنية في سورة آل عمران، 14. [والقائلة: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين، والقناطر المنطرة من الذهب والفضة والخيال المسومة"].

(7) - لسان العرب، ابن منظور، مادة: سؤم.

أما العرب، خاصة أهل المغرب العربي فقد دعوا إلى ترجمتها (بالسيمياء) محاولة منهم في تعريف المصطلح، والسيمياء مفردة حقيقية بالاعتبار، لأنها كمفردة عربية — كما يقول الدكتور معجب الزهراني — (ترتبط بحقل دلالي لغوي — ثقافي، يحضر معها فيه كلمات مثل: السِّمَة، والتسمية، والوسام، والوسم، والميسم، والسِّمَاء والسيمياء (بالقصر والمد) والعلامة). وتنتهي السيمياء — أيًا كانت التسمية — في أصولها ومنهجيتها إلى البنيوية، إذ البنيوية نفسها منهج منظم لدراسة الأنظمة الإشارية المختلفة في الثقافة العامة⁽¹⁾.

ومن أشهر أعلام السيميولوجيا، تشارلس ساندرز بيرس، ورولان بارت، وغريماس، درومان باكبسون، وأميرتو إيكو، ومايكل ريفتير، وجوليا كريستيفا، وباربرا هيرنستاین سميث.

ولئن كان دي سوسير هو الذي استخلص مسمى السيميولوجيا، فإن رولان بارت هو الذي مارس التحليل السيميولوجي على أكمل وجه، جاء بما يقرب مقولة سوسير إذ زعم أن اللسانيات هي الأصل، وأن السيميولوجيا فرعٌ منها، ثم جاء جاك دريدا الذي اعترف بجهود بارت، إلا أنه دعا إلى قلب مقولة بارت نفسها، ولا نريد أن ندخل في تفاصيل هذه التحليلات، وإنما نقول: إن كلمة علم الدلالة *Semantique* المشتقة من الكلمة اليونانية *Sêmaino* "دل" والمتولدة هي الأخرى من الكلمة *séma* أو العلامة. هي بالأساس الصفة المنسوبة إلى الكلمة الأصل *Sens* أو المعنى، والتغير الدلالي هو تغير في المعنى، والقيمة الدلالية لكلمة تكمن في معناها⁽²⁾.

وتعطي كريستيفا، وجماعة (تيل كيل) للدرس السيميائي امتداده الأقصى باعتباره منهجية للعلوم الإنسانية، ولذلك فتق الدارسون أنواعاً مختلفة تتدرج تحتها كالسيميائية الطبيعية والسيميائية الكبرى، والبيوسيميائية، والتحليل السيمي، والإثنوسيميائية، والحقل السيميائي، والحكم السيميائي، والشحنة السيميائية، والنمو السيميائي، وكثير غير هذه المصطلحات المنبثقة من مفهوم السيميائية والتي يحسن بالدارس المهتم بهذا الاتجاه أن يلم بها⁽³⁾.

هذه إطلالة مقتضبة على علم السيمياء في مفهوميه التراثي والحداثي، أرجو أن تكون قد وضحت مفهوماً حام الكتاب حول دلالته، فوفقوا تارة، وجانبهم التوفيق تارة أخرى.



(1) - دليل النقاد الأدبي، الرويلي والبازعي، ط3، 177 - 178.

(2) - دليل الناقد الأدبي، الرويلي والبازعي، ط3، 177 - 178.

(3) - لمزيد من المعلومات عن السيميائية انظر: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، د. أميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني، 118 - 124. فلسفة الأدب والفن، د. كمال عيد 172. معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، 206 موسوعة علم النفس. حسين عبد القادر، 402 - 404. الموسوعة العربية الميسرة. محمد شفيق غربال، 1057. والكتب المقصورة على بحث السيمياء.